

عمارة قصور الأطلس الصحراوي (الأصل، الواقع، والآفاق)

(Architecture of the Saharan Atlas ksours (origin, reality, prospects

ط. د. / محمد أحمد عمار

قسم التاريخ والآثار، جامعة زيان عاشور-الجلفة

البريد الإلكتروني: m.ammam@univ-djelfa.dz

الملخص:

تتميز القصور بمنطقة الأطلس الصحراوي بفكر معماري مُتميز نتج عن تراكم تجارب عديدة جعلته يتماشى و معطيات البيئة الصحراوية الموجودة فيها من جهة، ويستجيب لمبادئ العمارة الإسلامية من جهة أخرى، ومن خلال هذا العمل سنسلط الضوء على أهم الخصائص التي ميزت عمارة النواة الأصلية لهذه القصور لنُعرج بعدها على الوضع الراهن الذي آلت إليه قصور هذه المنطقة خصوصا مع انسياق إنسان الصحراء نحو أسلوب معماري جديد أفقد القصور الكثير من ملامحها المعمارية الإسلامية، وحبذا لو اكتست طابعا حديثا، فالواقع أبان عن صورة معمارية مشوهة لا مرجعية لها، إلى حدٍّ أصبحنا نلاحظ سكنات في قلب القصور الصحراوية أُعيد بناؤها بطامع معماري لا يمت للهوية المعمارية الأصلية بأي صلة، كل هذا في ظل سياسة وطنية تبقى غير كافية لإعادة هذا الموروث المادي إلى مكانته الحقيقية، أو على الأقل حمايته من الزوال، لذلك فالوضع يستوجب حولا ناجعة قابلة للتجسيد، تتناسب والدهنيات الموجودة حاليا على أمل إعادة إحياء هذا النمط المعماري الأمثل والأحسن لسكان هذه المنطقة

الكلمات المفتاحية: عمارة أصلية؛ التأثيرات الاستعمارية؛ الأطلس الصحراوي؛ تحول؛ آليات.

Abstract:

The ksours in the Saharan Atlas region are characterized by a distinct architectural thought that resulted from the accumulation of many experiences that made it compatible with the data of the desert environment in which it is located on the one hand, and responds to the principles of Islamic architecture on the other hand. Through this work, we will shed light on the most important characteristics that distinguished the architecture of the original core of these palaces, so that we can go back to them. Given the current situation that the ksours of this region have reached, especially with the desert man's drift towards a new architectural style, the ksours have lost many of their Islamic architectural features, and it would be better if they had acquired a modern character.

Reality has revealed a distorted architectural image that has no reference, to the extent that we have begun to notice residences in the heart of desert ksours that were rebuilt with architectural greed that has no connection to the original architectural identity. All of this is in light of a national policy that remains insufficient to restore this material heritage to its true status, or to its original state. It is least protected from disappearance, so the situation requires effective solutions that can be implemented, commensurate with the currently existing designs, with the hope of reviving this ideal and best architectural style for the residents of this region.

Keywords: Original architecture; Colonial influences; Saharan Atlas; Transformation; Mechanisms.

مقدمة:

يُميّز منطقة جبال الأطلس الصحراوي تواجد عدد هائل من القصور، غير أنّ هذه الأخيرة تعيش وضعاً كارثياً أثر على هويتها المعمارية، وذلك نتيجة لعمليات التشويه إضافة إلى حالات الهدم المتقدمة التي طالت معظم مبانيها، وما زاد الأمر تعقيداً سياسة الإهمال التي طالت هذا الإرث الثقافي المهم عوضاً عن تحمل المسؤولية والتحرك لتجنيبه الأسوأ.

يهدف هذا المقال العلمي إلى إبراز مميزات عمارة هذه القصور، إضافة إلى الآليات الموضوعية التي يمكنها تحسين واقع هذه القصور، وهذا ما يقودنا للإجابة عن التساؤل الآتي:
هل يمكن تصحيح وضع القصور المعماري والعمراني وتجنيبها خطر الاندثار من خلال فرض آليات معينة؟

للإجابة على هذه الإشكالية قمنا بدراسة ثلاث قصور، وقد تعمّدنا أن نتفاوت في حالتها بين منسّها الترميم ومن لم يَمسّسها وبين الحالة الجيدة والمتدهورة، كما حاولنا قبل ذلك تقديم إحاطة عامة عن مُميّزات عمارة وعمران القصور بمنطقة الأطلس الصحراوي وأهم التحولات التي طرأت عليها، لنتطرق في الأخير إلى أهم الآليات والحلول التي تتناسب وظروف كلّ قصر.

1- مبادئ العمارة والعمران بقصور الأطلس الصحراوي:

تُعتبر سلسلة الأطلس الصحراوي أطول سلسلة جبال في الجزائر، تتكون حلقاتها من الغرب إلى الشرق من جبال لقصور وجبال لعمور وجبال أولاد نايل إضافة إلى جبال الأوراس¹، وتتميز بندرة الأمطار التي لا تتجاوز 200 ملم سنوياً، وبشتاء بارد وصيف حار وجاف²، هذه الظروف فرضت فكراً معمارياً وعمرانياً خاصاً، هذه أهم مبادئه:

1-1- التدرج الهرمي: تمّ تنظيم مختلف المجالات والساحات والشوارع على أساس مبدأ التدرج بأسلوب دقيق حيث تقضي الشوارع الرئيسية إلى الثانوية ومنها إلى الممرات الضيقة فالممرات الخاصة، هذا التنظيم يعكس حجم الخصوصية الاجتماعية في القصور³.

¹- رمضان محمد الصالح، 1965م، ص. 123.

²- بوخلال خديجة، 2011م، ص. 04.

³- مريد عبد القادر، 2011م، ص. 164.

1-2- التخطيط المتراص والمتضام: يُعتبر هذا التخطيط السمة البارزة في عمارة المناطق الحارة، فتعديل الحرارة يستوجب تقارب الجدران الخارجية للمباني، كما أنّ وجود الالتواءات بها كفيل بتوفير أكبر قدر ممكن من الظل⁴، ما يُجَنَّب جزءا مهما من الواجهات الخارجية والأسطح أشعة الشمس، ويَحُدّ من الطاقة المتسربة إلى المباني، كما يساعد على التّحكم بحركة الهواء والحماية من الرياح الساخنة المحملة بالأتربة⁵.

1-3- الفناء الداخلي: يُعدّ الفناء من العناصر المعمارية التي عالجت مشاكل البيئة المناخية بامتياز، فهو عبارة عن فضاء مفتوح أو شبه مفتوح في شكل فتحة علوية⁶ يُسحب إليه عبر الفتحات الهواء الحار المستهلك من داخل الغرف في فترات النهار، ليحدث العكس ليلا بإدخال الهواء البارد، وذلك وفق المبدأ الفيزيائي الذي يفيد بأن الهواء البارد أثقل وبالتالي ينزل إلى الطبقات السفلى فيما يصعد الهواء الساخن إلى الأعلى⁷، كما يُعتبر الفناء فضاء مناسباً للحركة والنشاط لأهل الدار ومكانا لتجمع أفراد الأسرة⁸.

1-4- تقليل الفتحات الخارجية: تتمثل في التّوافذ والأبواب، حيث تُصنّف على أنها نقاط الضعف في الأداء الحراري فهي تقوم برفع معامل التوصيل الحراري عبر الواجهات الخارجية التي تعتبر الأجزاء الأكثر تعرضا لأشعة الشمس، لذلك يتم توجيهها نحو الفناء الداخلي، ويكون حجمها صغيرا في أغلب الأحيان⁹.

1-5- الساحات العامة: تُعرف في كثير من المناطق الصحراوية بالرحبة، وتطلق على الأرض الواسعة، وهي تلك الفراغات غير المبنية¹⁰، وتستعمل لتجمع أهل القصر وإقامة حفلاتهم، حتى أنّه يطلق عليها في بعض القصور ساحة البارود، كما تُستغل كسوق، فهي بذلك تجمع بين الدور الاقتصادي والاجتماعي داخل القصر الصحراوي¹¹.

1-6- المخازن: تختلف فضاءات التّخزين من قصر لآخر، كما أنّ "الهدف الأساسي من بناء القصر هو تخزين المنتجات الزراعية والمواد الغذائية للقبائل المتاخمة لها أو الرحل"¹².

⁴ - NOUIBAT, B.; TACHERIFT, A, 2007, p. 50.

⁵ - علاء الدين عبد الرحمان إبراهيم، 2019م، ص. 1643.

⁶ - مريد عبد القادر، 2011م، ص. 103.

⁷ - عقيل فوزي محمد؛ حمزة محمد أبو بكر الخازمي، 2019م، ص. 457.

⁸ - باشيخ أسماء، 2011م، ص. 28.

⁹ - عقيل فوزي محمد؛ حمزة محمد أبو بكر الخازمي، 2019م، ص. 457.

¹⁰ - بن يوسف ابراهيم، 1992م، ص. 85.

¹¹ - سويقات ربيعة، 2020م، ص. 787.

¹² - حملاوي علي، 2006م، ص. 20.

1-7-التحصينات الدفاعية: تتمثل هذه التحصينات غالبا في سور خارجي يحيط بالقصر أو مجموعة أسوار الجدران الخارجية للمساكن، وتُدعم غالبا بأبراج، كما قد يحاط القصر ببعض الخنادق لتعزيز حمايته¹³، ويستخدم السور أيضا للتحكم في عمليات الدخول والخروج من القصر¹⁴.

1-8-مواد البناء المحلية: يُعتبر الوسط الصحراوي مصدرها الأول وهو ما يسهل الحصول عليها، كما أنها تتناسب مع الظروف البيئية التي توجد فيها من خلال قدرتها على تحسين الأداء الحراري داخل مباني القصور، وأبرز هذه المواد نذكر الحجارة بأنواعها والطوب والطين، إضافة إلى جذوع النخيل¹⁵.

2-المشاكل التي تعانيها عمارة قصور الأطلس الصحراوي:

لم تشهد منطقة الأطلس الصحراوي توسع كبير للمستعمر إلا أنّ ذلك لم يمنع وصول تأثيراته من شمال الجزائر إلى جنوبها، ويتضح ذلك جليا في التوسعات المجاورة للقصور¹⁶. كما عمد السكان إلى إضافة بعض الفضاءات الدخيلة على عمارة القصور مقابل الاستغناء عن أخرى أصلية، وهو ما أفضى إلى:

- حدوث شرخ كبير بين أنماط البناء في النواة الأصلية والتوسعات.
- أصبحت الفضاءات على مستوى التوسعات السكنية القريبة من القصور مفتوحة مع شوارع ذات تخطيط يتميز بالاستقامة والتّعامد.
- اختفاء عنصر الفناء بعد التغطية الكلية للأسقف القديمة بهدف تحويل هذا الفضاء إلى نشاطات أخرى.

2-معالجة المشاكل المعمارية والعمرانية للقصور:

2-1- تحليل النسيج العمراني: أو كما تسمى عملية قراءة النسيج العمراني والتي تتم من خلال دراسة جميع معطيات النسيج العمراني، ويعتمد هذا المبدأ على إمكانية اعتبار القصر نسيج عمراني حي، كما يمكن اعتباره متحف في الهواء الطلق، لذلك تُعتبر التفاصيل مهمة في اختيار نوعية الحلول، فمعالجة قصر في حالة جيدة تختلف عن آخر في حالة متقدمة من التدهور، كما أنّ قراءة النسيج العمراني تقوم أساسا على تحليل تيومورفولوجي يعتمد على تقسيم النسيج العمراني إلى عناصر بغرض اظهار الاختلافات المرتبطة بالعلاقة بين التنظيم المجالي والممارسات الاجتماعية¹⁷.

2-2- استرجاع الهوية: قبل أن نخوض في مفهومها يجب أن نشير إلى أنّ الأنثروبولوجيين من أمثال تايلور ومورغان يؤكّدون أنّ فكر الإنسان هو نفسه في جميع الأماكن فالكل يفكر بالطريقة نفسها ويطور

¹³- عبد الحليم يحيوي، 2016م، ص. 81.

¹⁴- بوخلال خديجة، 2011م، ص. 15.

¹⁵- مبارك هدي، 2016م، ص. 82.

¹⁶- شاهد علي حيدر، 2019م، ص. 37.

¹⁷- PANERAI, P. ; Autre, 1978, p. 91.

ثقافته في خطوط متشابهة، كما أنّ الجميع يتمتع بالذكاء نفسه، غير أنّ البيئة هي من تصنع الفوارق الموجودة¹⁸.

ويُقصد باسترجاع الهوية عودة فكر الإنسان الذي جعل "التعايش مع البيئة واحترام الدين والتقاليد معياراً أساسياً لتشكيل هويته المعمارية التي كانت جزءاً من الهوية الثقافية للمجتمع، وصناعتها لا يمكن أن تحدث إلاّ من خلال تفاعل جماعي تاريخي مع وجود درجة عالية من الإحساس بروح المسؤولية الجماعية"¹⁹.

يُعتبر البحث عن الهوية محاولة مشروعة لمقاومة التغريب الذي وصل إلى منطقة الأطلس الصحراوي في شكل تقليد غير مدروس للعمارة الغربية، دون مراعاة قواعد معروفة تكون حلقة وصل بين العمران الأصلي والمتطلبات الجديدة²⁰. كما أشار وليام أوريلي "William Orielle" إلى أنّ القيم العالمية ليست بالضرورة صالحة للجميع، فالثقافات الخاصة لها احتياجات معمارية خاصة تخضع للخصوصية الإقليمية والمحلية²¹.

وقد حان الوقت لتقديم نماذج محفزة وناجحة باستعمال عناصر معمارية أصلية قادرة على التكيف مع متطلبات الحاضر، فذلك سيكون محفزاً ودافعاً لتغيير النظرة السلبية للسكان اتجاه هويتهم الأصلية.

2-3- تطبيق القوانين:

أ- القانون رقم 98-04:

يهدف هذا القانون الذي أعتد في 15 يونيو 1998م إلى حماية التراث الثقافي (98-04، 1998: 2)، حيث نجد عددا مهما من مواده تتناسب والأهداف المرجوة لرد الاعتبار لهذه القصور، حيث:

- تنص المادة 23 على أنّ أي رخصة بناء أو تعمير تخص المناطق الأثرية لا يتم إصدارها إلا بموافقة المصالح المكلفة بوزارة الثقافة، كما أن المادة 30 تحدد القواعد العامة للتنظيم والبناء سواء بالمناطق الأثرية المحمية أو بمناطق التوسعات²².
- تؤكد المادة 41 على وحدة وتجانس المباني فنيا وجماليا ومعماريا، كما تنص المواد 43، و44، و45 على ضرورة تزويد المناطق الأثرية على غرار القصور بمخطط دائم للحماية والإصلاح يحل محل مخطط شغل الأراضي²³.

¹⁸- مشاري عبد الله النعيم، 2013م، ص. 13.

¹⁹- محمد العلفي محمد، 2009م، ص. 129.

²⁰- بوجمعة خلف الله، 2003م، ص. 100.

²¹- محمد العلفي محمد، 2009م، ص. 129.

²²- قانون رقم 98-04، 1998م، ص. 02.

²³- نفسه، ص. 08.

- خُصِّصَت المواد 82، و84، و87 لأجراء صيانة دورية للتراث المادي بصفة عامة²⁴ والقصور الصحراوية بصفة خاصة.

ب- **المرسوم التنفيذي 19/15**: تم سن هذا المرسوم المتعلق بكيفيات تحضير عقود التعمير وتسليمها في 25 يناير 2015م²⁵، وأكثر فصلين في هذا القانون يتناسبان مع أهداف بحثنا هما الثاني المتعلق برخصة التجزئة والثالث المتعلق برخصة البناء²⁶.

ويُقصد قانونيا بالترخيص أو رخصة البناء "أخذ الإجراءات الوقائية التي تحدد ماهية المبنى المرخص به وذكر مواصفاته وبيان الغرض منه سكن أم وظيفي أم تجاري، وتستخدمها سلطات الضبط الإداري لوقاية الدولة وأفرادها من الأضرار التي قد تتجم عن ممارسات الحريات والحقوق الفردية، وحماية المصالح العامة والخاصة"²⁷.

يساعدنا توظيف هذا المرسوم التنفيذي على فرض العناصر المعمارية والتنظيمات العمرانية التي تتوافق مع النمط الأصلي، وذلك على النحو التالي:

- إجبارية الفناء الداخلي:

فرض الفناء الداخلي في مخططات رخص بناء مباني التوسعات أو في رخص البناء التعديلية الخاصة بالمساكن القديمة داخل القصور وذلك بتطبيق المادة 43 التي تنص على "ضرورة احترام طريقة بناء الجدران والأسقف بما يتناسب ومخطط الهندسة المعمارية مع احترام خصوصية الموقع"²⁸.

- تحديد مواد البناء:

يجب أن تحتوي البيانات الكمية المرافقة لمخططات البناء على مواد بناء محلية خصوصا الحجارة والطوب إضافة إلى استعمال أخشاب محلية للتسقيف وذلك استنادا إلى نفس المادة السابقة رقم 43.

- الواجهات:

يجب أن تحترم الواجهات المطروحة للتعديل أو إعادة البناء نفس نمط واجهات المباني الأصلية من خلال منع استعمال التلبيس الإسمنتي أو فتح نوافذ كبيرة في المخططات التعديلية، ويمكن الاستناد في ذلك على المادة رقم 41 التي تنص على أن "أي أشغال تغيير في واجهة أو هيكل البناية تستوجب الحصول على رخصة بناء طبقا لأحكام المواد 49 و50 و55 من القانون رقم 90-29 المؤرخ في 01 ديسمبر 1990م"²⁹.

²⁴- نفسه، ص. 10.

²⁵- المرسوم التنفيذي 15/19، 2015م، ص. 02.

²⁶- نفسه، ص. 13.

²⁷- السيد أحمد المرجان، 2002م، ص. 89.

²⁸- المرسوم التنفيذي 15/19، 2015م، ص. 13.

²⁹- نفسه، ص. 13.

- حلّ مشكل غياب التخطيط المتضام في التوسعات الجديدة:

يُعالج هذا المشكل بتطبيق مواد الفصل الثاني الخاص برخص التجزئة خصوصاً المادة رقم 09 التي تحدد بشكل خاص موقع وطبيعة البنايات المبرمجة وشكلها العمراني³⁰، والمادة رقم 11 التي تنص على ضرورة احترام مخطط شغل الأراضي بالمناطق المعنية بالبناء³¹.

- انسجام المباني:

يمكن فرض تجانس بصري بين مباني النسيج العمراني سواء داخل القصور أو بتوسعاتها وهذا بتطبيق المادة السابقة رقم 11 التي تنص كذلك على ضرورة احترام المناظر الطبيعية والحضرية وطابع الأماكن المجاورة³².

- البنايات في طريق الإنجاز بطابع غير أصلي:

يسمح هذا القانون بإلغاء رخص البناء التي صدرت بمخططات حديثة وإعادة مراجعتها وذلك بتفعيل المادة رقم 21 التي تنص على أنّ "مخطط شغل الأراضي أو مخطط الحماية والإصلاح يمكنه أن يعدّل من طبيعة البنايات المبرمجة للبناء أو التعديل حتى لو استفادت من رخص بناء أو تجزئة مسبقة وهذا حرصاً على المحافظة على الطبيعة العمرانية والمعمارية والتحكم فيها"³³.

- أجهزة تنفيذ المرسوم التنفيذي 19/15:

يحرص على تطبيق هذا القانون ممثل عن إحدى الهيئات المعنية بحماية التراث المادي عند دراسة الملف التقني الخاص برخص البناء أو التعديل كما تنص المادة 47³⁴، أما في مرحلة التنفيذ فتُعين لجنة خاصة بعقود التعمير تسهر على مطابقة أشغال الرّخص الصادرة، ولها صلاحية تحرير محاضر ضدّ الأشغال غير المرخصة ليتمّ إيقافها واتّخاذ الإجراءات الردعية في حق أصحابها وذلك حسب المادة رقم 90 (15/19، 2015: 23)³⁵.

2-4- الاستفادة من استخدام نظم المعلومات الجغرافية "SIG": هو نظام تشغيلي يدمج البيانات والأهداف للخروج بمعلومات ذات مغزى³⁶، خصوصاً عندما يكون صنع القرار أمراً معقداً ما يخلق الحاجة لأدوات تحليلية ذات فعالية³⁷، ويتمّ ذلك بتجميع الخرائط والصور الجوية وصور القمر

³⁰ - المرسوم التنفيذي 19/15، 2015م، ص. 07.

³¹ - نفسه، ص. 07-08.

³² - نفسه، ص. 08.

³³ - نفسه، ص. 09-10.

³⁴ - نفسه، ص. 16.

³⁵ - نفسه، ص. 23.

³⁶ - THÉRIAULT, M. ; Autre, 1992, pp. 519-520.

³⁷ - THÉRIAULT, M. ; Autre, 1992, p. 521.

الاصطناعي، إضافة إلى استعمال نظام تحديد المواقع العالمي "GPS"³⁸، تعتبر البيانات الأثرية والبيانات الجغرافية والمكانية جد معقدة غير أنه يتم تنظيمها في طبقات مرتبة على حسب المواضيع³⁹. يمكن لهذه النظم تقديم حلول فعالة تغير واقع القصور المعقد من خلال تحليل البيانات المكانية "SDA"، وذلك بتحديد حيز الدراسة ومعرفة أهم استخداماته (سكن، وتربية الماشية، ومهجور...الخ) وإبراز أثر العوامل الطبيعية والبشرية عليه، مع إخضاعه لدراسة طبوغرافية للتمييز بين مختلف مناطق⁴⁰.

3-دراسة ميدانية:

قمنا بدراسة ثلاثة قصور ولم نركز على تفاصيلها المعمارية والعمرانية بقدر ما ركزنا على التحولات التي طلتها.

3-1-قصر مغرار التحتاني (قلعة الشيخ بوعمامة) (الصورة 01):

يقع غرب جبال لقصور يحده شمالا منطقة تيتوت ومغرار الفوقاني الذي يبعد عنه بـ 10 كلم، وجنوبا البنود وواد الجديدة ولوليدات وبلاد البرد، وغربا حدود المملكة المغربية، أما شرقا فنجد الكدوة، فيما يتربع على مساحة تقدر بهكتار ونصف⁴¹.

يعتبر المسجد العتيق أهم مكونات القصر ويقع في الوسط بجانب السوق، غير أن موقعه أصبح أمام أحد مداخل القصر الرئيسية المسمى الشرافة بعد هدمه من قبل الاستعمار الفرنسي في أفريل سنة 1847م⁴²، وهناك أربعة مداخل تتصل مباشرة برحبة القصر من خلال أزقة تربطها بها.

كما تكثر ظاهرة الأضرحة في مغرار التحتاني، وقد بنيت في الجهة الغربية للقصر وهي الجهة نفسها التي عرفت بناء الأبراج، فيما لحقت عدة انهيارات بمساكن القصر التي في الغالب ذات طابق علوي، وقد عرف هجرة سكانه نحو مدينة مغرار التحتاني "الجديدة".

يعتبر الطين المادة الأساسية للبناء، كما تستعمل مادة الصلصال المحلية إضافة إلى الحجر المسطح أو المادون الذي يستعمل في بناء درجات السلالم والمشكاة والسكاف الذي يسمى أيضا بالمنار⁴³.

³⁸ - بلحشر حسين، 2018م، ص ص. 104-105.

³⁹ - BARGE, O. ; Autres 2004, p. 20.

⁴⁰ - GOOLDCHILD, M.; HAINING, R.; Autre, 1992, p. 409

⁴¹ - مباركي عبد المجيد، 2001م، ص. 05.

⁴² - نفسه، ص. 34.

⁴³ - نفسه، ص. 65.

الوضع العام للقصر اليوم:

تغيّرت وظيفة القصر من السكن إلى مكان لتربية الماشية والأنعام وهو ما أثر كثيرا على التركيبة المعمارية لمبانيه، حيث تعرضت بعض جدرانها للهدم بدافع خلق مساحات حتى تتناسب مع هذه الوظيفة الجديدة.

تُعتبر نسبة التحديث قليلة لسبب واحد هو أنّ القصر تمّ هجرته ولم يُطرح لفكرة السكن مرة أخرى، فيما انهارت معظم أسقف مبانيه.



الصورة 01: منظر جانبي لقصر مغرار التحتاني.

3-2- قصر أربوات الفوقاني (الصورة 02):

يعتبر هذا القصر أحد المجمعين السكنيين المكونين لبلدية أربوات إلى جانب أربوات التحتاني مقر هذه البلدية، ولا يفصله عنه إلا 03 كلم، ويبعد أربوات الفوقاني 100 كلم عن مقر الولاية البيض و20 كلم نحو الجنوب عن البيض سيدي الشيخ مقر الدارة المنتمية لها.⁴⁴ وتقدر مساحته بـ هكتارين.

هو الآخر يشكل المسجد والسوق مركز قصبته، ويتميّز بوجود سكنات متلاحمة ودروب ملتوية. يتميز بوجود مدخل وحيد في الجهة الغربية أين توجد البساتين عكس القصرين الآخرين المتواجد بهما أربعة مداخل تتجه كلها نحو الوسط، كما تحيط به الأضرحة من ثلاث جهات باستثناء جهة المدخل، وهو محصن بسور وأبراج دفاعية من جهاته الأربعة.

كما لجأ السكان إلى بناء مخازن تحت الأرض حتى يتمكنوا من وضع الأساسات في مستوى التربة الجيدة بحكم "هشاشة الربة الطينية التي بني فوقها القصر"⁴⁵.

الوضع العام للقصر اليوم:

أصبح في حالة هدم جد متقدمة، حيث تعرضت معظم جدران مبانيه إلى الانهيار لدرجة تآكل أساساتها.

⁴⁴ - عبد الحليم يحيوي، 2016م، ص. 13.

⁴⁵ - نفسه، ص. 52.



الصورة 02: منظر جانبي لقصر أربوات الفوقاني.

3-3- قصر تيوت:

يقع قصر تيوت على بعد حوالي 17 كلم غرب مدينة عين الصفراء، على ضفاف وادي تيوت المتفرع عن واد ناموس⁴⁶.

تتميز دروب قصر تيوت بالاتساع مقارنة بدروب القصرين السابقين وهوما يرفع معامل التوصيل الحراري عبر الواجهات الخارجية، لذلك نجد بعضها مسقوفة لحماية الأهالي من أشعة الشمس، وكما ذكرنا سابقا يوجد أربعة مداخل تتجه كلها نحو المسجد الموجود في الوسط، ولا يخلو هذا القصر من الأضرحة حتى أننا نجد أن بعضها تقع داخل البيوت.

بُنيت جُل مباني القصر من الطين الأحمر إلى جانب الحجارة المشذبة، مع استعمال جريد النخيل وبعض أنواع الخشب في التسقيف.

الوضع العام للقصر اليوم:

يُعتبر هذا القصر أكثر تعقيدا من سابقه ليس بسبب حجم الدمار ولكن لحجم التشويه الذي طاله، ورغم أنه عرف عدة عمليات ترميم قامت بها بعض المقاولات إلا أنها لم تكن بالأسلوب الصحيح، كما اقتصر على مجموعة محدودة من المباني، وما زاد الوضع صعوبة عمليات البناء العشوائية التي قام بها الأهالي (الصورة 03).

⁴⁶ - نجية ابن شنهو، 2004م، ص. 86.



الصورة 03: منظر جانبي لقصر تيوت يبرز عمليات التحديث.

3-4- المعالجات المعمارية والعمرانية:

تختلف الآليات المطبقة في القصور الثلاث من حيث الأولوية والترتيب وهذا لتتوافق مع معطيات كل قصر، ونلخصها حسب الآتي:

أ- قصر مفرار التحتاني:

تتدخل السلطات في هذا القصر لإيقاف ظاهرة تربية الماشية والأنعام كأول خطوة مع تقديم بدائل لذلك بمنح المربين فضاءات خارج القصر يتم تهيئتها مسبقاً، وتؤطر العملية بقوانين صارمة. بعد تجاوز هذه المرحلة تأتي مرحلة إعادة استغلال المباني بالشكل الذي يتناسب مع معطيات القصر. **(الصورة الجوية 01).**

ب- قصر تيوت:

تعتبر عمليات التحديث العشوائي والترميم غير الصحيح أكبر مشكل يجب حله، ولا سبيل لذلك إلا بتطبيق نصوص القانون رقم 98/04، في المقابل يجب فرض رخص تعديلية مدروسة حسب المرسوم التنفيذي (19/15).

بعد القضاء على عمليات التشويه تأتي مرحلة إعادة الاستغلال على غرار ما اقترحه القصر السابق **(الصورة الجوية 02).**

ج- قصر أربوات الفوقاني:

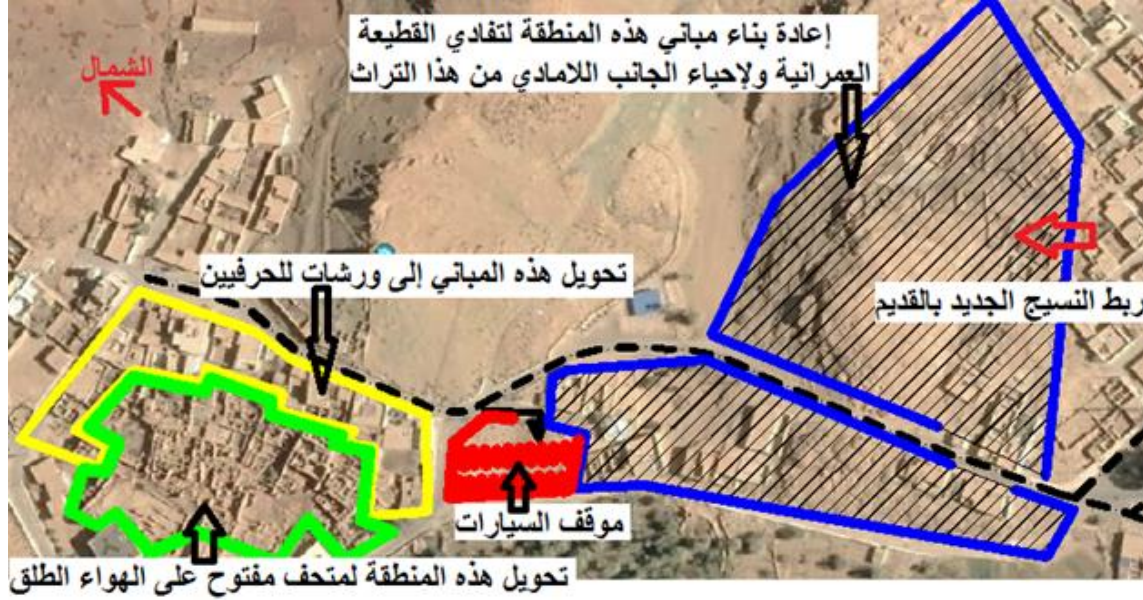
تستدعي وضعية هذا القصر تدخلا مغايرا بحكم أنّ جميع أجزائه في وضعية انهيار كلي تقريبا، لذلك يجب إتباع مخطط إعادة الاستغلال المناسب للمباني المتدهورة (التفصيل في العنوان الموالي).

3-5- إعادة الاستغلال:

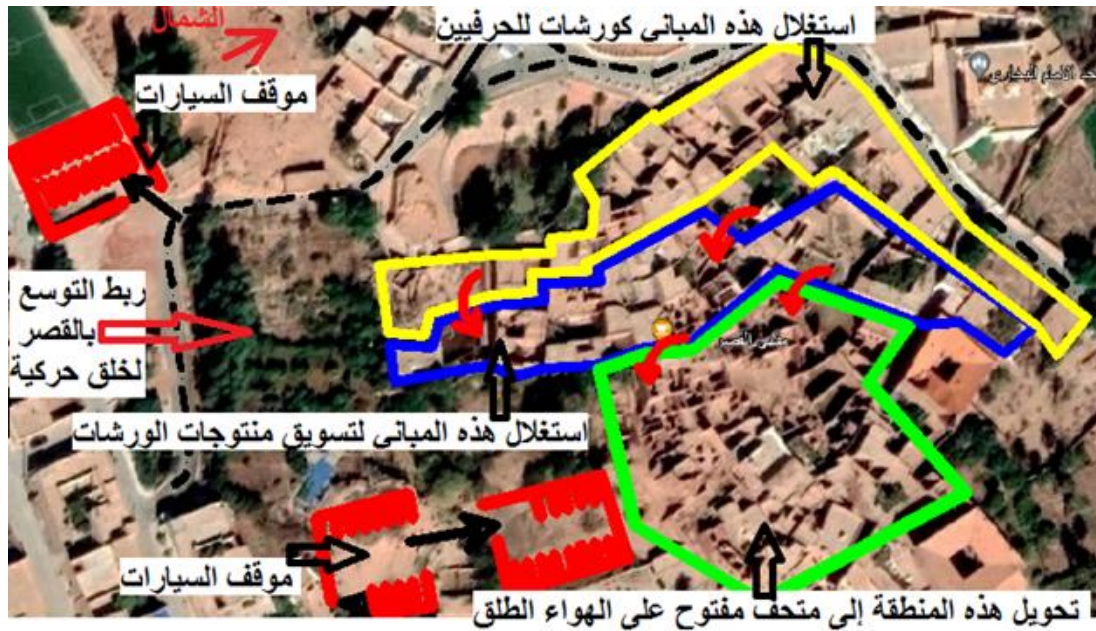
نقصد به وضع خطط واقتراحات موضوعية تتلاءم مع وضعية مباني كل قصر، مبدؤه هو استرجاع أو الحفاظ على أكبر قدر ممكن من العناصر والفضاءات في كل قصر حتى وإن اقتضى الأمر التخلي عن بعضها أو تغيير وظائفها، ويتم ذلك حسب الأولوية والقدرة على الاسترجاع، وهذا على النحو التالي:

المباني المتهورة:

يتم ترميمها بالأسلوب الصحيح ليعاد استغلالها في شكل ورشات للحرفيين مع امكانية ربطها بالشوارع الرئيسية لتشكيل شريان تجاري تغذيه منتوجات هذه الورشات، (صورة ثلاثية الأبعاد 01 و 02).



الصورة الجوية 01: إعادة استغلال قصر مغرار التحتاني - معدلة عن: الباحث.



الصورة الجوية 02: إعادة استغلال قصر تيوت - معدلة عن: الباحث.

المباني في طريق الاندثار:

تعتبر الجزء الأكثر صعوبة وهي تحتل موقفين، إما إعادة بناء الأجزاء المنهارة وفق النمط الأصلي وتشجيع السكان على العودة إلى استغلالها (الحفاظ على الجانب اللامادي) مع ضرورة الحفاظ على معالم الجدران الأصلية بتركها بارزة مع ترميمها (الحفاظ على الجانب المادي)، وإما تجنب إعادة البناء

والاكتفاء بترميم ما تبقى من الجدران دون المساس بهيكلها مع تهيئة هذه المنطقة لاستغلالها كمتحف مفتوح على الهواء الطلق، شرط أن لا تُستغل المباني المحيطة بها لوظيفة السكن لتقادي القطيعة العمرانية "rupture urbaine" داخل نسيج القصر (صورة ثلاثية الأبعاد 01 و 02).



صورة ثلاثية الأبعاد 01: تبين إعادة استغلال مباني القصر -أنموذج عام. عن: الباحث.



صورة ثلاثية الأبعاد 02: تظهر خلق حركية نحو القصر -أنموذج عام. عن: الباحث.

الخاتمة:

بعدما خضنا في أبرز سيمات العمارة القُصورية وأساليبها العمرانية وتحدثنا عن التلف والتشويه الذي طالها، نستخلص أنّ تغيير هذا الواقع بات مسؤولية الجميع، فإما إنقاذ ما تبقى من مباني القصور وإما فقدان آخر الرموز الشاهدة على الهوية الأصلية لهذه المنطقة القائمة على فكر معماري يُقدس العلاقة بين الإنسان وبيئته.

وحتى نعود بالتقاليد المعمارية والعمرانية إلى سابق عهدها يجب الاقتناع بأن عمليات ترميم مباني القصور لن يكون لها معنى لو لم تُتبع بإعادة استغلالها بالشكل المناسب.

استرجاع الفكر المعماري الذي أسس هذا التراث المادي مرهون بتقديم نماذج جديدة على نفس المواقع أو بالقرب منها تجمع بين العناصر المعمارية الأصلية وعناصر الراحة التي تفرضها الحياة المعاصرة.

كما نأمل مستقبلا توجيه المهندسين المعماريين والحَضَرِيِّين نحو التركيز أكثر عند رسم مخططاتهم على اعتماد مبادئ النمط المعماري والعمراني الأصلي، بشكل يجعل هذا الأخير جاذبا وليس طاردا لسكان منطقة الأطلس الصحراوي كما هو عليه الحال.

قائمة الببليوغرافيا:

1. ابن شنهو نجية، 2004م، المساجد القديمة في قصور عين الصفراء-صفيصة وتيوت ونموذجاً، رسالة ماجستير غير منشورة لنيل شهادة الماجستير (الفنون)، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.
2. أحمد السيد المرجان، 2002م، تراخيص أعمال البناء والهدم بين تشريعات البناء والأوامر العسكرية والقرارات الوزارية وأحدث أحكام القضاء، القاهرة، دار النهضة العربية.
3. باشيخ أسماء، 2021م، «عمارة المنزل التقليدي بمدينة أدرار بين وظيفة التصميم والحفاظ على الهوية». ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر الدولي السابع للتراث والسياحة والفنون بين الواقع والمأمول، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، عدد خاص 2، أبريل.
4. بلحش حسين، 2018م، تطبيق نظام المعلومات الجغرافية على مواقع الفن، أطروحة دكتوراه غير منشورة لنيل شهادة الدكتوراه آثار ما قبل التاريخ، جامعة الجزائر2-أبو القاسم سعد الله، معهد الآثار، الجزائر.
5. بن يوسف ابراهيم، 1992م، إشكالية العمران والمشروع الإسلامي، ط1. الجزائر: مطبعة أبو داود.
6. بوجمعة خلف الله، 2003م، «المدينة الجزائرية والبحث عن الهوية»، مجلة Courrier Du Savoir، 04، ص ص. 95-101.
7. بوخلال خديجة، 2011م، قصر تاجموت بولاية الأغواط، رسالة ماجستير غير منشورة لنيل شهادة الماجستير آثار ما قبل التاريخ، معهد الآثار، جامعة الجزائر2، الجزائر.

8. حملاوي علي، 2006م، نماذج من قصور منطقة الأغواط دراسة تاريخية وأثرية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
9. رمضان محمد الصالح، 1965م، مبادئ الجغرافيا العامة وموجز جغرافية الجزائر، الجزائر، الشركة الجزائرية.
10. سويقات ربيعة، 2020م، «خصائص العمارة التقليدية الصحراوية»، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والإجتماعية، 12، 03، ص ص. 781-792.
11. شاهد علي حيدر، 2019م، تأثير النمو العمراني على واقع وشكل الفضاء العمومي للمدن الصحراوية، أطروحة دكتوراه غير منشورة لنيل شهادة الدكتوراه الهندسة المعمارية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.
12. عبد الحليم يحيوي، 2016م، مشروع أعمال الترميم-قصر أربوات الفوقاني، أطروحة دكتوراه غير منشورة لنيل شهادة الدكتوراه صيانة وترميم المباني الأثرية والمعالم التاريخية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.
13. عقيل فوزي محمد؛ حمزة محمد أبو بكر الخازمي، 2019م، «الاستدامة في العمارة الصحراوية، دراسة وتحليل المعالجات المستخدمة لتقليل الكسب الحراري في المناطق الصحراوية-مدينة غدامس»، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر الهندسي الثاني للمهن الهندسية بالزاوية، ص ص. 442-459.
14. علاء الدين عبد الرحمان إبراهيم، 2019م، «السمات المشتركة لعمارة الصحراء الكبرى المدخل البيئي للتصميم في المناطق الحارة الجافة»، جريدة جامعة الأزهر-قسم الهندسة، 14، 53، ص ص. 1633-1648.
15. قانون رقم 98-04، 1998م، «حماية التراث الثقافي»، الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية، العدد 44، 17 يوليو 1998، الجزائر، المطبعة الرسمية.
16. مبارك هدي، 2016م، أعمال ترميم للمنشآت الدفاعية بقصر تمنطيط، رسالة ماجستير غير منشورة لنيل شهادة الماجستير صيانة وترميم المباني الأثرية والمعالم التاريخية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تلمسان، الجزائر.
17. مباركي عبد المجيد، 2001م، قصر مغرار التحتاني دراسة أثرية ومعمارية، رسالة ماجستير غير منشورة لنيل شهادة ماجستير آثار إسلامية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.
18. محمد العلفي محمد، 2009م، «الهوية الثقافية الوطنية وأثرها في خصائص الهوية المعمارية»، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر الهندسي الثاني، جامعة عدن، 31-30 مارس، عدن، ص ص. 127-141.
19. المرسوم التنفيذي 15/19، 2015م، «كيفية تحضير عقود التعمير وتسليمها»، الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية، العدد 7، 12 فيفري 2015، الجزائر، المطبعة الرسمية.

20. مريد عبد القادر، 2011م، الاستدامة والتشكيل العمراني في مدن الواحات بين تجارب الماضي والواقع القائم-رسالة ماجستير غير منشورة لنيل شهادة الماجستير الهندسة المعمارية، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر.
21. مشاري عبد الله النعيم، 2013م، «عبقية المكان في التراث العمراني السعودي»، ورقة عمل مقدمة إلى ملتقى التراث العمراني الوطني الثالث أبحاث وآثار، الهيئة العامة للسياحة والآثار، 8-12 ديسمبر 2013م، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية.

22. BARGE, O. ; Autres= BARGE, O. ; RODIER, X. ; DAVTIAN, G. ; SALIGNY, L., 2004, « L'utilisation des systèmes d'information géographique appliquée à l'archéologie Française », in Archéo Sciences Revue d'Archéométrie, 28, pp. 15-24.

23. GOOLDCHID, M.; HAINING, R.; WISE, S., 1992, « Integrating GIS and spatial data analysis; problems and possibilities », in international Journal of Geographical Information Systems, 06, 5, pp. 407-423.

24. NOUIBAT, B. ; TACHERIFT, A., 2007, « L'occupation optimale du sol urbain à l'habitation individuelle dans les régions arides », in Sciences & technologie. D, Sciences de la terre, 0, 25, pp. 55-69.

25. PANERAI, P. ; Autre= PANERAI, P. ; VEYRENCHE, M., 1978, Eléments d'analyse urbaine, Paris.

26. THERIAULT, M.; MILLER, M., 1992, «Geographical Information Systems. Principles and applications », in Cahiers de géographie de Québec, 36, 99, pp. 515-525.